بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.
أما بعد،،

فقد ذكر العلماء - رحمهم الله تعالى - أن أفضل الليالي في حق النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليلةُ الإسراءِ والمعراج، ويريدون تلك الليلة بعينها، لا مثيلاتها في كل عام.
وإذا كانت تلك الليلة بهذه المنزلة لدى الحبيب صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فحريّ.
بالمحب له، والملاحظ لمواطن فرحه، والراجي للتوافق الباطني معه أن يُثَوِّر من قلبه من الفرح والسرور بهذه الليلة ما يليق بمقام صاحب الإسراء والمعراج، ويتناسب مع حبنا له.
وقد كان دأب الصحابة - رضي الله عنهم - أنهم يرقبون مواطن فرح محبوبهم، ويلحظون محابه فتكون تلك هي مواطن فرحهم، ومحل حبهم.
فقد جاء في الصحيحين عن سيدنا أنس بن مالك - رضي الله - أنه قال: (رأيت النبيّ. صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يتتبع الدباءَ حوالي القصعة؛ فلم أزل أحب الدباء من يومئذ)!
مع أن اشتهاء شيء، والنفور من مطعوم ما أمر طبيعي، تختص به الجبلة، ولكن إذا بلغت المحبة مبلغًا عظيمًا غيرت حتى الطباع والمشتهيات، بل وفي نفس اللحظة، وهذا ما وقع لسيدنا أنس - رضي الله عنه- في قوله من يومئذ، أي من تلك اللحظة.
فالواجب الأدبي على كل محب للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم - وكل المسلمين محبون له وإن تلبس بعضهم ببعض المعاصي - ترسيخ عظمة هذه الليلة، وإثارة الفرح بها، واستشعار بالغ سرور الحبيب صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فيها.
ورسوخ هذا الشعور، واستيطانه في قلب المسلم يسهل عليه الانبعاث لبعض الأعمال في هذه الذكرى، واتخاذها منطلقًا، فقل أن ينطلق عمل ظاهر من شعور باطن إلا ورسخ ودام وأينع وعظمة ثمرته.
وقد خطر على بالي - وأنا أدير نواة هذا المقال في خاطري - أن ثمة أعمال تتناسب مع مرحلتنا اليوم، والتي تلبدت في سمائها غيمةٌ كبيرةٌ من الآلام والمآسي، فمن المناسب التركيز عليها، واستثمار هذه الذكرى العظيمة لاتخاذها قاعدةً للانطلاق، وهي ثلاثة أعمال:

الأول: فتحُ بابِ عظيمِ الرجاء في الله سبحانه وتعالى، والتشوف وملاحظة مفاجئة الخير والفرج، فإن عادات الحق تعالى في مفاجئة الخير عظيمة؛ وذلك أن الخير المفاجئ أعظم وقعًا في القلب، بخلاف الشر المباغت، وعادات الله تعالى معنا كلها جميلة، ولذا كان يسأل النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الأول كل صباح ومساء، ويستعيذ بالله من الآخر فيهما كذلك.
ومناسبةُ الذكرى لهذا الأمر، أن هذه الحادثة كانت تطمينًا للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه

وسلم، لما سبق من توالي المحن كموت أمنا السيدة خديجة - رضي الله عنها - وموت أبي طالب، وحادثة الطائف.
وفيها من رسائل الله تعالى المليئةِ بالحب والحنان الشيء الكثير، وفي ظل الظرف الراهن من الأزمات الكبيرة التي تمر بها بلداننا، وجائحة كورونا التي تكاد أن تعم البشرية يتحتم تدعيم هذا الشعور، وتعظيم هذا الرجاء.
وفي ظل الجوائح والحروب، وفي أثناء إثارة الفتن يكون المخرج الوحيد هو النابع من داخلنا، والناشيء منا، ولا شك أن السبيل الآمن والأكثر طمانينة هو ترقب الفرج، وعقد الأمل على باب الله تعالى.
وقد حث النبيُّ صلى الله عليه وآله وصحبه على انتظار الفرج، وعدم اليأس، وجعل هذا الفعل بحد ذاته عبادة، بل جعله أفضل العبادة! فقال فيما أخرجه الترمذي وغيره، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر من حديث سيدنا عبدالله بن مسعود - رضي الله - أنه قال: (أفضل العبادة انتظار الفرج).

الثاني: إعادة النظر في أدائنا لصلاتنا، فقد كان شيخ الإسلام الإمام عبدالله بن عمر الشاطري - رحمه الله تعالى- يقول: (اذا حسُنت صلاتُكم حسنت كل حياتكم).
ولما كانت العادة أن من وصل لحضرة عظيم من العظماء أن يرجع بعطية تليق بمكانة ذلك العظيم، ومنزلة الزائر، فقد كانت الصلاة هي تلك الهدية والعطية من حضرة الحق سبحانه وتعالى، وكانت أعظم هدية، وأجل عطاء.
ولما كانت قلوب المتشوفين المتشوقين تسمع عن ليلة الوصال تلك، والقرب الذي لم ولن يصل إليه أحد من العالمين، وتشتاق لذلك مد الله تعالى لهم البساط الذي يشابه ذلك البساط، وفتح لهم بابًا تهب منه نسائم من تلك الحضرة الخاصة بهذه الصلاة العظيمة.
وإذا لم نصل إلى ذوق تلك المعاني، ولم تَشَم أرواحنا تلك الحالة القدسية فلنشوق قلوبنا لها، ولنخطرها على أنفسنا، من باب (فإن لم تبكوا فتباكوا).
ومن أعظم ما يعين على حسن أداء الصلاة، والقيام بها مع وجود روحها أمران:
الأول: تخصيص لحظاتٍ في اليوم - ولو ربع ساعة - يختلي فيها العبد بربه، ويعكف على عتباته، ويظهر فيها عبوديته، ويبدي فيها انكساره، فقد كان الإمام ابن شيخ الحزاميين - رحمه الله تعالى- يقول: (تلك ساعة تعود على صلواتك بالحياة، وكلما قوي الحضور في تلك الساعة قوي الحضور واستشعار معنى الصلاة).
الآخر: التفرغ قبل الصلاة عن الاشتغال بأمور الدنيا، ولا سيَّما منصات التواصل الاجتماعي، وحضور القلب حال الوضوء، وصلاة القبيلة، والإتيان بما تيسر من الذكر لتهيئة القلب للدخول على حضرة الله تعالى.

الثالث: مما يجدر بنا ترسيخه، والعزم على المضي فيه الثبات على منهج الله تعالى، ومعنى الثبات الازدياد من الإيمان واليقين، وسرعة الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة عند حصول الزلل.

فإن من أعظم المشاهد التي شاهدها الحبيب صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في تلك الليلة ريح ماشطة بنت فرعون، أخرج أبو يعلى وابن حبان والضياء عن ابن عباس - رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليلة أسري به مر بريح طيبة فقال: "يا جبريل ما هذه الريح؟" فقال: هذه ريح ماشطة بنت فرعون وأولادها، بينما هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المدرى (المشط) من يدها فقالت: بسم الله فقالت بنت فرعون: أبي؟ قالت: بل ربي وربك الله، قالت: وإن لكِ ربًا غير أبي؟ قالت: نعم، الله، قالت: فأخبر بذلك أبي؟ قالت: نعم، فأخبرته فأرسل إليها، فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم؛ ربي وربك الله، فأمر بنقرة من نحاس فأحميت، فقالت له: إن لي إليك حاجة، قال: نعم، وما حاجتك؟ قالت: حاجتي أن تجمع بين عظامي وبين عظام ولدي، قال ذلك لك لما لك علينا من الحق، قال: فجعل يلقي ولدها واحدًا واحدًا حتى انتهوا إلى ولد لها رضيع فقال: يا أمتاه أثبتي فإنك على الحق.

ونسأل الله تعالى اللطف والعافية، ولعل أكثرنا لا يصل به الحال إلى هذا الحد، وإنما هي فتن تعرض علينا من جهة الشبهات أو الشهوات، ويصر فرعون النفس على إضعافنا تجاهها، ولكن لا بد من السماع إلى طفل الفطرة، والإصغاء إلى نقاء الروح الكامنة في كل إنسان.

وتلك الريح الطيبة حالة تمتد لتشمل كل عصر ومصر، لتَصْدُر من كل ثابت على الحق، صابر محتسب، ولا سيما فئة الشباب، والتي تُستهدف في إيمانها وأخلاقها.

وكأني بشاب أو شابة قد وقع تحت ضغط فرعون النفس، وهامان العصر، وأبى إلا الثبات والصبر، ففاحت منه ريحةٌ طيبةٌ تصل النبيَّ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فيُخبر أنها رائحة فلانة أو فلان ممن صبر على تجبر فرعون النفس والواقع.

ختامًا .. اللهم وكما أكرمتنا بحبيبك صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فحببنا إليه وحببه إليه، وكما أطلت أعمارنا فأدركنا هذه الذكرى فجُد علينا فيها بما تجود به على المدللين عليك، الأحظياء عندك، وكما جعلتنا مؤمنين بها فاجعل لنا نصيبًا وافرًا من عروج أرواحنا، وكما أسمعتنا اتصال مكة بالقدس تشريفًا في تلك الليلة البهية، أكرمنا بتحرير الأخيرة، وانعتاقها، وتطهرها من أيدي أعداء الإنسانية عاجلًا غير آجل بعز ونصر وتمكين، واجعل لنا حظًا من ذلك كل ذلك عافية تامة، ولطف خفي شامل.

وصلى الله على المتفرد بكل كمال، المتوج بتيجان الجمال، والمجلبب بجلابيب الجلال، عروس الحضرة، وقهرمان المجلس، ومحط النظر في الوجود، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

بقلم / مختار بن هاشم جامل